المحاضرة الأولى

ماهية البحث التاريخي وأهدافه

يفترض منطق تدريس بعض المواد التعليمية في إطار التكوين ضمن مختلف الأطوار الجامعية؛ تحديد وضبط الكثير من المفاهيم الأساسية ذات الأهمية الكبرى والمتميزة في معالجة محتوى المادة المدروسة، إذ أنّ تحديد مفهومها بدقّة يُساعدنا على مهمّة التدريس وتوجيه الفائدة العلمية التعليمية للطلبة بطريقة جيّدة. وضمن هذا السيّاق ارتأينا أن يكون الدرس الأول من مادة تقنيات البحث التاريخي حول "ماهية البحث التاريخي وأهدافه"، بما يجعلنا نُقدّم بعض المفاهيم الأساسية ذات الارتباط بمهمة البحث في مجال التاريخ، مع توضيح أهمية وأهداف البحث التاريخي.

I- تحديد المفاهيم الأساسية للدرس:

I-1- تعريف علم التاريخ:

إنّ الباحث في نطاق التاريخ والتوجهات الرئيسية فيه، سيقف على تعريفات عديدة لعلم التاريخ، إذ اختلف اللغويون حول أصل كلمة "التاريخ"، هل هي عربية أم معربة؟. فمنهم من قال أنها عربية كالأصمعي ، والبعض قالوا بأنها فارسية مأخوذة من "ماه روز" ومعناها حساب الشهور والأيّام أو التوقيت حسب القمر، بينما يرى البعض الآخر أنّ لفظة "التأريخ" مشتقة من "تاريخ" العبرية بمعنى القمر أو "يرخ" بمعنى الشعر. وقد اكتفت المعاجم العربية بالقول أن لفظة "التأريخ" مرادفة للفظة "توريخ" وهي مشتقة من كلمة "أرَّخ" و"ورّخ" التي تعني تعريف الوقت. ولعل ذلك ما أكده محمّد بن يحي الصولي الذي بيّن بأن تاريخ كلّ شيء في اللغة؛ هو غايته ووقته الذي ينتهي إليه، ومنه فلان تاريخ قومه في الجود؛ أي الذي انتهى إليه.

هذا وتجدر الإشارة أيضاً إلى أنّ كلمتي "أرَّخَ" و"وَرَّخَ" ذات أصول جزيرية أكدية وفينيقية، تعنيان الشهر والتوقيت، مع العلم أنّ لفظة "التأريخ" لم ترد في القرآن الكريم، الذي تضمن ما يشير إليها فقط من عبارات ومصطلحات، من ذلك مثلاً "أساطير الأوّلين، أنباء، قصص..." ، إذ نقرأ في قوله تعالى: "لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُومِنُونَ" سورة يوسف، الآية 111.، وقوله أيضا: "كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً" . سورة طه، الآية 99.

وفي تعريفها الاصطلاحي تدلّ لفظة "التاريخ" على معانٍ متفاوتة، إذ يوجد من يقول أنّها تدلّ على العلم الذي يعني بدراسة الأحداث التي وقعت في الماضي، أو العلم الذي يسعى لإقامة تتابع الأحداث التي وقعت بالفعل، وقيل أنها تدلّ على العلم الذي يختصّ بترتيب وتضييق السلوك الإنساني عبر الزمن الماضي، بل وثمة من رآها سجّل مكتوب للماضي والأحداث التي وقعت فيه . وبهذا نجد الكثير من الباحثين يؤكدون على علمية التاريخ كفرع من فروع العلوم الإنسانية المختصة في دراسة الظواهر الإنسانية قديماً وحديثاً، فهو علم قائم بذاته ذلك أنّه يعتمد على خصائص المادة التاريخية وطرق البحث فيها، علمٌ بأهدافه وطرقه، يهدف كغيره من العلوم إلى البحث عن الحقيقة من خلال منهج مستقل تكوّن نتيجة التراكم المعرفي عبر العصور، ثم تطوّر حتى أخذ شكله المعروف حاليا الذي تندرج مادته التاريخية ضمن نطاق المعرفة المنظمة، المقننة، الهادفة إلى الوصول نحو الحقيقة المعرفية المنشودة .

وعلى النقيض من ذلك فإننا نجد الكثير من الآراء التي نفت صفة العلمية عن التاريخ باعتبار أنه لا يخضع للقوانين العلمية الوضعية التي تحدّدت معطياتها في القرن التاسع عشر، وبذلك يكون التاريخ دون العلم بكثير؛ لأن مادته غير ثابتة ولا قابلة للتحديد، وبالتالي غيّاب الاختبار والتجربة في الدراسات التاريخية، ولعلّ هذا ما جعل أصحاب هذا الطرح يصنفون التاريخ كفن من الفنون الذي يعتمد على الأشياء المجالية دون الضبط بقوانين محدّدة .

ولعله من المستحسن هنا أن نشير إلى تعريفات علم التاريخ عند مشاهير المؤرخين، من ذلك مثلاً المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون الذي تطرّق في مقدمته إلى دلالة علم التاريخ، على أساس كونه علم مستقل بذاته، ذو موضوعٍ؛ هو العمران البشري والاجتماع الإنساني، وذو مسائل؛ وهي بيان ما يلحقه من العوارض والأحوال، ثم يضيف عن علم التاريخ إذ يقول: "اعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب، جمّ الفوائد، شريف الغاية، إذ هو يُوقفنا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم وسياساتهم، حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدنيا، فهو محتاج إلى مآخذ متعدّدة ومعارف متنوعة، وحسن نظر وتثبت يفضيان بصاحبهما إلى الحقّ، وينكبّان به عن المزلات والمغالط..." . فالتاريخ عند ابن خلدون هو علم المعرفة والفنّ، بحيث يهتم في جانبه المعرفي بالتعرّف على أحوال الأمم السابقة، والإخبار عنهم، وهو من حيث الممارسة فنّ من خلال النظر إلى حرفة التاريخ وصنعته .

كما أشار السخاوي في كتابه الموسوم بـ: "الإعلان بالتوبيخ لمن ذمّ التاريخ" إلى مدلول علم التاريخ في الاصطلاح، إذ يقول: "علم التاريخ أو علم التعريف بالوقت الذي تُضبط به الأحوال في مولد الرواة والأئمة، ووفاة وصحة عقل وبدن، ورحلة، وحج، وحفظ، وضبط وتوثيق، وتجريح وما أشبه ذلك، مما مرجعه الفحص عن أحوالهم في ابتدائهم، وحالهم في استقبالهم. ويلحق به ما يتفق من الحوادث والوقائع الحليلة...، وربما يتوسع فيه ليبدي الخلق، وقصص الأنبياء، وغير ذلك من الأمور الماضية، والحاصل أنه فنّ يُبحث فيه عن وقائع الزمان من حيثية التعيين والتوقيت عما كان في العالم .

أما القرماني أحمد بن يوسف فقد تطرّق إلى مفهوم علم التاريخ على أساس أنه علم الأخبار عن الكائنات السابقة في العالم؛ فهو السبيل إلى معرفة أخبار ما مضى من الأمم .

ودون ما استطراد في ذكر دلالات علم التاريخ عند مشاهير المؤرخين، يمكننا القول بصفة عامة وواضحة أن علم التاريخ؛ هو واحد من العلوم النقلية التي تهتم بدراسة حركة الإنسان في الماضي منذ خلق البشرية، فهو يعكس استمرار الوجود الإنساني عبر الزمن بمنجزاته السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية، وما تركته هذه المنجزات من تأثيرات في تطوّر الحضارة بين الماضي والحاضر، بما يجعلنا نقر بفائدته الكبيرة وغايته النبيلة .

هكذا يتّضح لنا أنّ مصطلح التأريخ قد عرّف بتعاريف مختلفة لعلّها تجتمع في التعريف القائل بأن التأريخ هو قصة الإنسان ونشاطه السالف بكلّ أبعاده ومغازيه، وهو بذلك يستوعب فلسفة الطبيعة وفلسفة العلم وفلسفة المجتمع الإنساني بكلّ أبعاده؛ لا سيما علاقة الأفراد فيما بينهم أو بمجتمعاتهم .

1-2- تعريف البحث التاريخي:

هو ممارسة فكرية في مسألة تاريخية تستهدف عن طريق استعمال أصول وقواعد منهج البحث التاريخي؛ تحويل تلك المسألة من قضية غامضة غير معروفة إلى بحث تاريخي شيّق، أساسه التحرّي والانغماس في الحقائق؛ لأجل التعرّف على طبيعتها وتفسيرها ، ومن الناحية المنهجية فإنّ هذا التعريف يشترط توفّر ثلاث عناصر جوهرية في عملية البحث ألا وهي: باحث متدرّب على عملية الكتابة علميّاً، عددٍ معيّن من النصوص التاريخية التي تأخذ شكل المصادر، وطريقة كتابية يتم بموجبها تطوير وكتابة الموضوع المخصّص، محدّدة بطرائق البحث التاريخي المتوفّرة ، علماً أنّ البحث التاريخي الجادّ هو أكبر من مجرّد إعادة ما قد كتب بدقّة في صفحات الآخرين حول مسألة تاريخية معينة، بل هو الذي يتوخّى صاحبه

الإجابة عن الإشكاليات التي تحتاج للدراسة والإيضاح، لتكون بذلك مبادرته خطوة مهمة في تقدّم البحث التاريخي .

1-3- تعريف المنهج التاريخي:

يعرّف المنهج التاريخي على أساس أنّه الطريق أو السبيل أو المراحل والخطوات التي يتبعها الباحث من أجل الوصول إلى الحقيقة التاريخية ، وهو يقوم في الجوهر على إعادة البناء التصوّري للماضي من وقائع الحقائق المستخلصة عن طريق الفحص والتحليل والتدقيق، وغير ذلك من متطلبات التدوين التاريخي ، وكأنه بذلك طريق المؤرخ في العمل على تحليل وتفسير الأحداث التاريخية؛ لأجل فهم المشاكل المعاصرة والتنبؤ بالمستقبل .

هذا ويمكن تعريف المنهج التاريخي بدقّة على أساس أنّه مجموعة الطرائق والتقنيات التي يتبعها المؤرخ بهدف الوصول إلى الحقيقة التاريخية، وإعادة بناء الماضي بكلّ وقائعه وزواياه، وكما كان عليه في زمانه ومكانه، وبجميع تفاعلات الحياة فيه، علماً أن هذه الطرائق قابلة دوماً للتطوّر والتكامل مع مجموع المعرفة الإنسانية وتكاملها ونهج اكتسابها ، خصوصاً ونحن نعلم أن المنهج التاريخي يقتضي في كثير من الأحيان توظيف الخبرات من مختلف التخصصات العلمية في السعي وراء استخراج القوانين والقواعد العامة التي رافقت مسيرة التاريخ بل ويحتاج أيضاً إلى ثقافة واعية وتتبع دقيق بحركة الزمن وما فيه من معطيات؛ يمكنها أن تنعكس في صورة مباشرة أو غير مباشرة على الكتابة التاريخية .

1-4- تعريف تقنيات البحث:

تدلّ تقنيات البحث على الطريقة النظامية والتطبيقات العلمية للبحث والدراسة، من خلال استخدام جميع الإمكانيات المتاحة؛ المادية وغير المادية، بأسلوب فعّال لإنجاز العمل المرغوب فيه، والمساعدة في العملية البحثية، والدراسة لبلوغ الأهداف المرجوّة . فحينما نقول تقنيات البحث فإننا نقصد بذلك جميع الإجراءات التقنية التي تتسم بها منهجية البحث، ويستعين بها الباحثون في إنجاز أبحاثهم العلمية، من مرحلة اختيار الموضوع وجمع مادته العلمية وإلى غاية كتابة خاتمة البحث، مع العلم بأن كل مرحلة من هذه المراحل تقتضي توظيف تقنيات خاصّة

هكذا تكون تقنيات البحث بمثابة فن الممارسة البحثية، كونها تدلّ على الجوانب التطبيقية والنظامية لأي بحث علمي، إذ تُساعد على تنمية الابتكار في تحليل ودراسة إشكاليات البحوث العلمية، وإيجاد الحلول المناسبة لها، هذا فضلاً على إضفاء المتعة والبهجة على واقع ممارسة البحث العلمي .

2- أنواع وأصناف البحوث التاريخية:

لقد تعدّدت الأبحاث في مجال الدراسات التاريخية، فهي وإن كانت متقاربة من حيث الأهمية والأهداف، إلاّ أنها تختلف فيما بينها من حيث مستويات تنفيذها ومستوى الباحثين فيها، إذ يمكن أن نميّز –على هذا الأساس– بين عدّة أنواعٍ من البحوث نذكر منها:

2-1- بحوث الدراسات الجامعية الأوّلية:

تشمل البحوث الصفية (أعمال موجهة) التي ينجزها الطلبة ضمن متطلبات محتوى المواد المدروسة في طوري الليسانس والماستر، فغالباً ما يقترح أستاذ المادة جملة من المواضيع (العناوين) ذات الارتباط الوثيق بمحتواها، ويرشد الطلبة إلى البحث فيها، في حدود عشرون صفحة؛ بغرض تنمية مواهبهم وتدريبهم على أسس وقواعد البحث. كما تشمل أيضاً بحوث التخرّج (المذكرات) التي يُكلّف الطلبة بإعدادها ضمن متطلبات نيل شهادة الليسانس أو الماستر، بحيث تنطبق عليها الشروط التقنية والمنهجية المطلوبة في البحوث الأكاديمية، علماً أن هذه الأخيرة (المذكرات) تكون تحت إشراف أحد الأساتذة من فريق التكوين، وهي تهدف إلى تكوين الطلبة وتدريبهم على اختيار مواضيع بحث جادّة، ومعالجتها على شكل مذكرات استعداد للمراحل القادمة من البحث، بما يعكس قدراتهم وهم في المرحلة النهائية من تكوينهم الجامعي .

2-2- بحوث ما بعد التدرّج:

يتم إعدادها في تخصّص دقيق ضمن ميدان البحوث التاريخية، وتشمل رسائل الماجستير التي تتضمّن موضوعاً علمياً دقيقاً وجديداً يكون بمثابة الخطوة الأولى للبحث في التخصّص ، على أن تتضمّن مرحلة إعداد البحث حصص دراسية كوحدات تعليمية يُمتحن فيها الباحث . كما يشمل هذا النوع من البحوث أيضاً أطاريح الدكتوراه التي يمكن اعتبارها أكثر تخصّصا من بحوث الماجستير، إذ يشترط فيها (الدكتوراه) تقديم حقائق جديدة ومبتكرة لإثراء الفكر الإنساني ، باعتبارها بحوثاً متقدمة هادفة إلى حل المشاكل عن طريق التقصي الشامل الدقيق، القائم على الأدلة والبراهين العلمية المرجعية

ويُشترط أن تكون بحوث ما بعد التدرّج تحت إشراف أستاذ أو أستاذين في التخصّص، وعادة ما تستغرق مدّة زمنية طويلة منذ تسجيلها في الهيئات العلمية للمؤسسة الجامعية التي ينتمي إليها الباحث، ومن خلالها يحصل الباحث على تجارب واسعة ضمن تخصصه الدقيق في مجال البحث التاريخي .

2-3- المقالات التاريخية:

يعدُّ المقال التاريخي نوع من أنواع البحوث التاريخية، وهو عبارة عن قطعة إنشائية ذات طول معتدل حول موضوع تاريخي محدّد ودقيق، يتم إعدادها وفق المنهج التاريخي من قبل أساتذة وباحثين مختصّين لتقديم حقائق تاريخية مفيدة للمعرفة الإنسانية ، وغالباً ما يتقدّم بها أصحابها لغرض المشاركة في التظاهرات العلمية والنشر في المجلات المحكمة، هذا فضلا على اعتمادها كوسيلة للترقية والتدرّج في الرتب العلمية ذات المستوى العالي .

2-4- الكتاب التاريخي:

وهو من أطول أنواع البحوث التاريخية ، يدلّ في معناه على أعمال المؤرخين الأكاديميين ذات الطابع الفردي أو الثنائي أو الجماعي، حول موضوع من المواضيع التاريخية، ويصدر الكتاب التاريخي عن دور النشر (دار الطبع) إمّا في نسخته الورقية أو في نسخة إلكترونية

3- أهمية البحث التاريخي وأهدافه:

لم يعد البحث التاريخي مجرّد سرد لحوادث الماضي فحسب، وإنّما غدا عنصر استلهام حقيقي للمجتمع من أجل البناء المستقبلي ، إذ يمكن الوقوف على أهميته بصفة واضحة من خلال النقاط التالية:

- تساعد البحوث التاريخية على فهم العناصر المشتركة لتكوين الأمم ونجاحها، أو تخلّفها وانهيارها، ومن ثمة يمكن اعتبار البحوث التاريخية الجادة بمثابة القاعدة الأساسية لرسم السيّاسة الحاضرة والمستقبلية للدوّل والأمم؛ في مختلف المجالات السيّاسيّة والعسكرية والاقتصادية...الخ .

- يعتبر البحث التاريخي أحد الميكانيزمات الهامة لاستجلاء خصائص الماضي والحاضر والعلاقات المتفاعلة بينهما، وعلاقة العلة والمعلول، إذ أننا نلجأ للبحث في التاريخ من أجل فهم الحاضر، ثم بالحاضر لفهم الماضي ومنه تتجلى قدرة المعرفة التاريخية على تمثل الماضي كشيء لم يعد موجود أبداً، فلا وُجود للحاضر دون وُجود للماضي مثلما أكده "ميشال دوسيرتو" الذي دعا إلى توثيق الأحداث العابرة التي تشكل تاريخاً مفتوحاً بصفة دائمة .

- تُفيد الدراسات التاريخية في تنمية المعرفة وفهم العلاقات الإنسانية التي تساعدنا كثيراً على إدراك حقيقة المشاكل الحالية؛ عن طريق دراسة الأسباب التاريخية التي مهدت لوقوعها، كما أنها تساعدنا على إصدار الأحكام، وتمدّنا بقدرات الإقناع بالحجة والمنطق والعقل . ذلك أن الوعي بالتاريخ لا يهيكل رؤيتنا للعالم وفهمنا لوجودنا في الزمن المتحرك وفقط، بل يكفل لنا علاقة سوية مع الماضي من خلال الأخذ بمسببات الظواهر والاستفادة من تجارب سابقينا .

– المساهمة الجادّة للبحوث التاريخية في إثراء النقاش المجتمعي وبقية النقاشات التي تهم تاريخ المجتمعات الإنسانية في الزمن الراهن، وفق مقاربة تاريخية معتبرة ونافعة ، من ذلك مثلاً اقتحام المؤرخين لمجال الكتابة التاريخية والتأريخ لجائحة كورونا التي حلت بالبشرية خلال الألفية الثالثة من القرن الواحد والعشرين .

– تساعد البحوث التاريخية على فهم قيمة الأحداث وتفاعلها مع الفكر الإنساني عبر التاريخ، أكثر من معرفة الأحداث في حدّ ذاتها، وذلك من خلال رصدها لتجارب حقيقية يمكن الاستفادة منها حاضراً ومستقبلاً.

– تعتبر البحوث التاريخية أساس تعليم الشعوب ويُنبوع ثقافتها ، ذلك أنّها تُحيط بحياة الإنسان في أبعادها المختلفة، لتعكس واقع استمرار الوجود الإنساني عبر الزمن بمنجزاته السّياسيّة والاجتماعية والاقتصادية والفكرية وما تركته تلك الإنجازات من تأثيرات في تطوّر الحضارة في الماضي؛ بغية الاستفادة منها في الحاضر والمستقبل .

– تساهم البحوث التاريخية في سدّ حاجات إنسانية أساسيّة؛ تفي بجوانب مهمة من حياة البشر الذين يعيشون في المجتمع، إذ يساعد البحث التاريخي على تحقيق معرفة المجتمع بذاته ورغبته في فهم علاقته بالماضي وعلاقاته بالمجتمعات الأخرى، فلا يمكن معالجة المشاكل والتصدّي للتحدّيات التي تواجه الفرد أو المجتمع من دون العودة إلى جذورها ومسبباتها في الماضي، ذلك أنّ كلّ مشكلة من المشكلات التي تعترض الإنسانية لها خلفيات في التراث التي ورثته عن الأجيال السابقة .

– تساعد البحوث التاريخية على فهم حركة التطوّر والتبدّل المستمر للإنسان في شتى المجالات، إذ ساهمت الكثير من الدراسات التاريخية في تحقيق التقدّم نحو الابتكار والإبداع المعرفي المبني على جهد السابقين والمكمل لعمل الأوائل .

يمكننا التأكيد في خاتمة هذا الدرس على أهمية البحوث التاريخية في إثراء المعرفة الإنسانية وتطويرها، خصوصاً في ظل التوجهات الجديدة لاهتمامات المؤرخين القائمة على إعادة بنية دلالة أحداث الماضي انطلاقاً من مشكلات الحاضر؛ بغية المساهمة الفعلية في إيجاد حلولٍ للمشكلات الراهنة.